صاحب «طبل الصفيح» في ذاكرة ناشره العربي

خالد المعالي

عام 1977 صدرت رواية غونتر غراس «سمكة موسى» أو «الشبّوط» حسب ترجمة أخرى. وككل رواية أو كتاب يصدر له أو خطاب يلقيه، لا بد من أن يثير ضجة في الأوساط الثقافية في ألمانيا وأن تصل أصداء هذه الضجة إلى الصحف في باقي أقطار العالم. وقتها، كنت لا أزال طالباً في الثانوية واهتماماتي الأدبية قراءة وكتابة في أوج زخمها. وهكذا اقتطعت صورة غلاف كتابه الذي رسمه بيده، من جريدة «الجمهورية» البغدادية التي نشرت تقريراً عن الرواية، وألصقتُه على بوابة صندوق خشبي صغير يضم كل كتبي، وبقيت أتأمل الغلاف في الغرفة الطينية الرطبة التي أتشارك مع أشقائي النوم والحياة فيها في تلك القرية. وهكذا أصبح غونتر غراس هاجساً بالنسبة إلينا. لم نقرأ له أي شيء تقريباً، لكنه أضحى حينها كأنه ضمير ألمانيا وأصبح حاضراً في خيالنا وفي أحاديثنا اليومية كأنه واحد من بيننا. لن أنسى مشهد ذلك الصديق الذي عاد من فرنسا بعد زيارة قصيرة وهو يحدثنا عن أشياء تفوق خيالنا وتصوّرنا. ومن أجل امتحانه سألناه إن كان قد قرأ رواية غونتر غراس الجديدة: «الشبوط»؟ فأجاب ببديهية واضحة: نعم، وحين أردفنا: ولكنها لم تترجم إلى الفرنسية بعد؟ فعلّق كأي كذّاب موهوب بأنه بقي أسبوعاً مع المترجم وهو يترجم وصديقنا يقرأ.

لم أكن أعرف بأن قدري سيقودني إلى ألمانيا، وبأني سأتابع غراس عن قرب، كقارئ يهيمن عليه شغف قراءة كتبه ومقالاته ومشاركاته في الحياة الألمانية والعالمية وأيضاً كناشر لكتبه بالعربية في ما بعد، وأن أُعايش الجدال بمستوياته المختلفة في مناسبة صدور كلّ كتاب جديد له، أو حتى خطاب، نعم مجرد خطاب احتفائي بالروائي التركي يشار كمال مثلاً، بمناسبة فوزه بـ«جائزة السلام» الألمانية، قد يؤدي إلى أزمة سياسية بين ألمانيا وتركيا، وبين غونتر غراس وحكومة المستشار الألماني هلموت كول يومها.

في بداية عام 1999 جرت مفاوضات بيني وبين ناشره المخلص شتايدل لغرض ترتيب ترجمات عربية لأعماله في «منشورات الجمل»، ووُقّع عقد عام في أبريل 1999، مقابل مبلغ رمزي حسب الناشر الألماني، وهو مبلغ كبير بالنسبة إليّ كناشر صغير، بالكاد تدبّرته، على أن تُرتّب عقود خاصة لكل عنوان يُترجَم. وهكذا بدأت العمل مع صديقي الكاتب العراقي حسين الموزاني، الذي أخذ على عاتقه ترجمة روايته الأولى والأبرز: «طبل الصفيح». لكن ما إن حلّ شهر أكتوبر 1999 حتى نال «جائزة نوبل» للآداب التي تعني في ما تعني لناشريه في أغلب دول العالم مبيعات كبيرة بالطبع. لكن بالنسبة إلى ناشر عربي، كانت بمثابة كارثة حقيقية، فقد نُشرت بعض كتبه في طبعات غير قانونية في دور نشر أهلية وحكومية في مصر وسوريا والعراق، وذهبت كل الشكاوى والرسائل التي أرسلتها إلى المؤسسات الرسمية والنقابات حول حقوق الملكية الفكرية في مهب الريح...

نشرتُ له بالعربية حتى الآن: «طبل الصفيح»، «القط والفأر»، «أعوام الكلاب»، «مئويتي»، و«في خطو السرطان». لم تنفد إلا طبعة «طبل الصفيح» الأولى وأُعيدت طباعتها بعد أكثر من عشر سنوات على صدورها الأول.

غونتر غراس كاتب صعب، جملته طويلة، وعالمه يبدو كأنه عصيّ على القارئ العربي. هو يبدو في كتابته كأنه خليط بين توماس مان وجيمس جويس. لا أعرف مدى انتشاره في اللغات الشرقية، لكنه بقي محدود الانتشار في اللغة العربية، وهذا لا ينطبق عليه وحده، بل ينطبق أيضاً على أعمال كاتبة ألمانية ممتازة هي كريستا فولف أو أعمال الكاتب النمساوي بيتر هاندكه أو حتى روايات السويسري ماكس فريش أو كاتبتي نوبل: الفريده يلينيك وهيرتا موللر. وبالطبع، هذه حال الأدب السردي الألماني الأحدث أيضاً. قد يضع المرء اللوم على الترجمة، وهذه يمكن أن تصحّ على كتاب ما، لكن لا يمكن تعميمها أبداً. بعدها، فترتْ همتي وقررت التوقف عن مواصلة نشر ترجمات لأعماله.

كانت لغونتر غراس مواقف واضحة من اضطهاد الكتّاب والمفكرين في العالم، وفي بلدان ما يسمى المعسكر الاشتراكي حينها، الأمر الذي اضطر أحياناً سفارات بلده إلى أن تدعوه إلى إلغاء تلك الزيارة أو هذه بسبب مواقفه «والبقاء في البيت». وعلاقته بالكاتب الألماني الشرقي أوفه يونسون (1934-1984) التي تكشف عنها الرسائل المتبادلة بينهما التي نشرت عام 2007، هي نموذج جميل وصادق. فرغم كون أوفه يونسون شخصية معقدة تقريباً وحساسة جداً، وتتبيّن هذه التفاصيل أكثر حين يوغل في تناول الشراب، إلا إنهما بقيا على تواصل حتى وفاة الأخير في إيرلندا، بعد انفصاله عن زوجته، التي اتهمها بأنها جاسوسة للمخابرات التشيكية أو شيء من هذا القبيل. حينما كان أوفه يونسون يعاني من الجدْب أثناء الكتابة، وأنه في طريق مغلق، يقترح غونتر غراس على ناشر الأول زيكفريد أونزلد الفكرة التالية: أن يفتعل الناشر منحةً للكتاب في نيويورك، وسيتكفل غراس بتمويلها، شرط إبقاء الأمر سراً، لكي يتمكن أوفه من تجاوز الطريق الإبداعية المسدودة التي وجد نفسه فيها. وبما أن الشيء بالشيء يُذكر، ففي خضم اهتمامه بالكتّاب المضطهدين، قرر عام 1970 استضافة شاعر روماني شاب اسمه: غونتر شولتس في بيته، وكانت علاقاته النسوية ربما قد أسهمت في فتور علاقته بزوجته، راقصة الباليه آنا غراس، وعلينا أيضاً عدم نسيان انتشار الوعي النسوي آنذاك، الأمر الذي أدى إلى قيام علاقة بين الشاعر الروماني الشاب وآنا غراس، الأمر الذي جعل إقامة غراس في بيته ببرلين غير محتملة، ودفعه إلى ترك برلين في ما بعد والطلاق. أما الشاعر الروماني الشاب، فقد افتتح شركة تاكسي في برلين، وقد بحثتُ عنها قبل أعوام بسبب الفضول ووجدتها ما زالت قائمة في برلين.

لسنوات كثيرة حضرتُ أمسيات، بناءً على دعوات خاصة، كان غونتر غراس هو المتحدث الأساسي فيها، أو الشخص المحتفى به، وكانت دائماً أمسيات غاصّة بالزوار، وبالعديد من شخصيات «الحزب الاشتراكي الديموقراطي» البارزة، الذي انتمى إليه غراس واستقال منه في ما بعد، وربما بسبب زهدٍ ما، أو خجلٍ موروث لم أقدّم نفسي له قط.

> كانت له مواقف واضحة من اضطهاد الكتّاب والمفكرين في العالم

اللغة العربية. وكان هدفنا بالطبع إطلاع القارئ العربي على الأعمال الأدبية الألمانية المعاصرة والتي حظيت بشهرة عالمية واسعة، لكنّنا وجدنا نفسها في موقف لا نحسد عليه، فقمنا بعد اعتراف غراس المتأخر بمراجعة ماضي الكاتب نفسه وموقفنا منه كذلك.

ففي عام 1969، شارك غونتر غراس في الحملة الانتخابية للحزب الاشتراكي الديموقراطي بقيادة فيللي براندت الذي كان غراس يرتبط معه بعلاقة وثيقة، ترجع أسبابها بدرجة أساسية إلى ماضي براندت نفسه الذي كان من المقاومين البارزين للحكم النازي. وألقى غراس عشرات الخطابات لصالح حزب براندت في حملة الانتخابات التي ساهم فيها أيضاً رفيق غراس ووزير الاقتصاد في فترة الائتلاف الحكومي الكبير كارل شللر، الذي شنّ حملة على الخصم السياسي المنافس كورت كيسنجر، فتعرّض للماضي النازي لزعيم الائتلاف الحكومي آنذاك المستشار كيسنجر، والذي كان نائباً لمدير قسم الدعاية في وزارة الخارجية الألمانية في العهد النازي. ويبدو أن وزير الاقتصاد شيللر نسي ماضيه الذي كشفت عنه مجلّة «دير شبيغل» في عدد حمل صورة شيللر على غلافه. فكتبت المجلّة تقول إنّ أستاذ الاقتصاد والوزير المرموق كان قد تطوّع عام 1933 في قوات «العاصفة» النازية SA وهو في سنّ العشرين، وانتمى إلى اتحاد الأساتذة النازيين، ثم أصبح عضواً في «الحزب القومي الهتلري». وأثناء الحرب العالمية الثانية، أوكلت إليه من قبل قيادة الجيش الألماني مهمة كتابة تقارير تحليلية عن الثروات المعدنية لمختلف الدول الأوروبية.

وهذه الحقائق كلّها كانت معروفة أيضاً بالنسبة إلى غونتر غراس، لكنّه مع ذلك كتب مباشرةً إلى رفيقه في «الحزب الاشتراكي الديموقراطي» شيللر يطلب منه الكشف العلني عن ماضيه المثير للاختلاف. ونشرت جريدة «فرانكفورتر ألغماينه» عام 2006 نصّ رسالتين كان غراس قد بعث بهما إلى زميله وزير الاقتصاد، الأولى في 1969 والأخرى بعد ذلك بعام تقريباً. وجاء في الرسالة الأولى: «أودّ أن أذكّرك يا عزيزي كارل شيللر مرّة أخرى بحديثنا السابق، وأرجو منك أن تتكلم في أقرب فرصة ممكنة، وعلناً، عن ماضيك السياسي أثناء الحقبة النازية. فجيل ما بعد الحرب لا يعرف عن ذلك سوى التسويف والتهوين غير المقبول الذي مارسه المستشار الألماني كيسنجر عندما قال إنه لم يكن مقتنعاً بعضوية الحزب النازي ولم يكن انتهازياً قطّ. وأرى من الأفضل لو أنّك تعترف صراحةً بغلطتك. وحينئذ ستخفف العبء عن كاهلك، وسيكون ذلك بالنسبة إلى الرأي العام مثل الصنيع الجميل الذي تقدمه الرعود فتجعل الجوّ صاحياً».

وكتب غراس بعد ذلك بأقل من عام إلى شيللر، يناشده مرّة أخرى أن يعترف بماضيه الذي اعتبره «خطأً لا يغتفر» وشدد قائلاً: «كنت قد طلبت منك، وبإلحاح شديد، أن تكشف للرأي العام سرّ علاقتك بتنظيم الحزب النازي، وأن تفعل ذلك بمبادرة ذاتية شجاعة، في الوقت المناسب، وبدون أسلوب استعراضي على طريقة أنني اعترف بذنبي، بل بنبرة واقعية جديرة بك. لكنك بدلاً من ذلك أخذت تهاجم كورت كيسنجر، وبحقّ من حيث المبدأ، فتناولت نشاطه في زمن النازية، وبالأخص عمله الدعائي في الرايخ الثالث، لكن من دون أن ترجع أنت نفسك إلى ماضيك. فقد اختلفت المقاييس وانكشفت العورة. ثم إنني فكرت طويلاً، كيف يمكن لسياسي بعيد النظر وكبير الخبرة وموهوب ومتواضع ويظهر تفهماً لشرائح واسعة من الناخبين، لكنه يبدو الآن، ومن خلال تفصيل جزئي، ضيّقاً ومتشنجاً جدّاً في ما يتعلّق بالحالتين اللتين ذكرتهما للتوّ». وأضاف غراس، كأنه يخاطب نفسه، أيضاً بأنه عثر «على نصف إجابة يمكن أن تعطي تلميحاً إلى التصرف المعهود للمثقفين، وهي عجرفة العارف السيئة الصيت. ولم يكن الأمر مجهولاً لي، لأنني، وأثناء التحضير لمسرحيتي «بليبيير» Plebejer، اضطُررت إلى التعامل لمدة عامين مع «كوريولان» شكسبير والمواقف الثقافية لبرتولد برشت، وتمكنت من مراقبة هذه العجرفة التي كانت تتلبسني أحياناً». ويبدو أن هذا الإيحاء كان اعترافاً ضمنياً بماضي غراس الملتبس وتطوّعه في فرق الحرس النازي الخاص «فافن أس أس»، وكتمانه سرّ هذا الانتماء أكثر من ستين عاماً، قبل أن يكشف عنه في سيرة حياته «أثناء تقشير البصل» الصادرة عام 2006.

ومن المفارقات التي أشارت إليها جريدة «فرانكفورتر ألغماينه» آنذاك، أن غراس كان يناشد زميله الوزير بخفض الضرائب عن كاهله، فبدلاً من أن يدفع عام 1965 ستين ألف مارك، طلب من الوزير أن يساعده لكي يحسم منها ثلاثين ألفاً، لأن غراس كان يمضي كلّ يوم ساعتين أو ثلاث ساعات مع الصحافيين الألمان، فيمكن أن يحتسب هذا العمل «نشاطاً ثقافياً» لمصلحة الألمان جميعاً على حدّ تعبير غراس. والآن، فقد رحل الكاتب الأشهر في ألمانيا في حقبة ما بعد الحرب وأثار نبأ وفاته المفاجئ، على الرغم من تقدمه في السنّ، صدمةً كبيرة على صعيد ألمانيا والعالم، بما فيه العالم العربيّ الذي يُحسب لغراس تضامنه معه وموقفه الواضح إزاء إسرائيل، حيث قال عنه «اتحاد الكتّاب العبرانيين» إنّه كان «يشنّ حملات صليبية حديثة على الدولة اليهودية». وفي نهاية المطاف، فإن التاريخ النقديّ وحده الذي سيُعيد تقويم غونتر غراس كاتباً وإنساناً.